الدكتور مجيد خدوري

أيام خالدة من تاريخ البعث في العـــراق

ذكريات من حقبة التأسيس



منشورات الطليعة
2007

أيام خالدة من تاريخ البعث في العراق

الدكتور مجيد خدوري
لندن - 2006

غرس بذور الحزب الأولى في العراق فايز اسماعيل ووصفي الغنام والشاعر المعروف سليمان العيسى ، ثلاثة سوريين قدموا في أواخر الأربعينات طلبة يدرسون في كليات جامعة بغداد فشرعوا بتركيز جهدهم السياسي على إقناع الطلبة بجدوى الانتماء الى صفوف الحزب ، وكان فائز اسماعيل أنشطهم ، وكان أن سجلوا نجاحا سريعا بسبب المشاعر الوطنية والقومية الملتهبة والمتأججة في نفوس الشباب في تلك الفترة .

أديت القسم حين دخولي الحزب عام ١٩٤٨ أمام فايز اسماعيل بحضور طه علي الرشيد ، والأخير طالب عراقي من أصل سعودي ، وكنا في ذلك العام ـ أنا وطه علي الرشيد ـ طالبين في مدرسة ثانوية الأعظمية في بغداد . وصادف بعد ترديد القسم بفترة قصيرة ان اتخذت إدارة المدرسة قرارا بفصلنا للسنة الدراسية ١٩٤٩/٤٨ وهي السنة الأخيرة المتبقية من دراستنا الثانوية بسبب تحريض الطلبة على التظاهر يوم ١٩ كانون الثاني/ يناير١٩٤٩ في الذكرى السنوية الأولى لوثبة الشعب ضد معاهدة بورتسموث .

وبعد وساطات وضغوط متعددة قررت إدارة المدرسة ابدال عقوبة الفصل بأخرى أخف من ثلاثة بنود هي : الفصل لمدة أسبوعين ، وتخفيض درجة السلوك الى النصف ، ونقلنا الى مدرستين بحيث لا نجتمع نحن الإثنين في

مدرسة واحدة[1] .

بعد انتهاء كسب عدد من الرفاق في بغداد وإنجاز متطلبات دراستهم غادر الطلبة السوريون بغداد تباعا ليتولى عبد الرحمن الضامن - من سكنة الأعظمية - مهمة الإشراف على لبنة الحزب في القطر العراقي وتأمين الصلة بقيادة الحزب في سوريا وتلقي التوجيهات منها . وكان الضامن يعهد خلال فترات زيارته لسوريا مهمة الإشراف على شؤون الحزب الى يحيى ياسين وهو محام من سكنة الأعظمية أيضا[2] .

بعد أن ترك عبد الرحمن الضامن الحزب نهائيا - بسبب ما قيل عن مرضه تارة وابتعاده الفكري عن الحزب تارة اخرى - تولى أبو القاسم محمد عمر كرو - من تونس - عام ١٩٥٠ (على وجه التقريب) مهمة الإشراف على

---

١ - توجه طه علي الرشيد الى إحدى المدارس الثانوية في مدينة البصرة حيث كانت عائلته تقيم ، وكان نصيبي - بعد جهد جهيد - الثانوية المركزية في العاصمة بغداد مسقط رأسي ، ذلك أن إدارة المدرسة رفضت في البداية قبولي فيها بسب العقوبات الثلاث المدونة على وثائق انتقالي وخشيتها من قيامي بتحريض الطلبة على المظاهرات والاضرابات . وبعد اجتياز الإمتحانات النهائية دخلت كلية التجارة والإقتصاد ، وعاد طه علي الرشيد الى بغداد ودخل الكلية ذاتها ، وهكذا التقينا مرة أخرى في السنة الدراسية ٤٩ / ١٩٥٠ في أول خلية حزبية في تلك الكلية . وكان طه من أبرز الأعضاء النشطين ، ولم يستطع إكمال سنته الدراسية الرابعة والأخيرة في الكلية حيث اضطر الى الهروب الى السعودية - موطن آبائه - بسبب ملاحقته من قبل الأجهزة الأمنية والقضائية في بغداد .

٢ - بعد تولي حزب البعث الحكم في تموز / يوليو ١٩٦٨ عين يحيى ياسين رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية وكان محل ثقة رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر . وبعد سنوات عديدة وتحت ضغط من صدام حسين أبعد يحيى ياسين عن منصبه المذكور وعين رئيسا لديوان الرقابة المالية .

التنظيم الحزبي وكان طالبا في دار المعلمين العالية في بغداد . وكانت القيادة في سوريا هي التي تعين مسؤول التنظيم في العراق الذي يمارس مهمته الحزبية كأمين سر القطر تقريبا ، حيث لم تكن هناك قيادة قطرية بالمفهوم الإنتخابي في تلك الفترة .

كان الإرتباط الحزبي بين الرفاق وكل من الضامن وياسين ، وحتى مع كرو في البداية ، ارتباطا انفراديا .

وفي خضم الإضرابات والمظاهرات في تلك الفترة قام مسؤولو الخلايا في الكليات - وكنتُ أنا من بينهم - بالضغط على ابو القاسم كرو لجعل مهمة تسيير الحزب بيد مجموعة يكون كرو على رأسها ، فتم تحويل الإشراف على الحزب في العراق لأول مرة من مهمة فردية الى مسؤولية جماعية .

تعييني أمين سر التنظيم في أوائل الخمسينات :

بعد أن قارب كرو على الإنتهاء من دراسته الجامعية ورحيله عن العراق عهدت القيادة في سوريا إليّ مهمة تسيير أمور الحزب في القطر العراقي وكان ذلك عام ١٩٥٢ ، وكنتُ ما زلتُ حينها طالبا في كلية التجارة والإقتصاد . وكانت المراسلات مع القيادة في سوريا - وعلى وجه الخصوص مع صلاح الدين البيطار وفائز اسماعيل - تسير بقنوات سرية .

كانت داري في الأعظمية تحتضن الإجتماعات الحزبية منذ أن تولى كرو مسؤولية التنظيم مرورا بمسؤوليتي كأمين سر التنظيم واستخدام أجهزة الإستنساخ والكثير من اجتماعات القيادة وآخرها انعقاد المؤتمر القطري الأول

أواخر عام ١٩٥٥ . ومن الصدف الفريدة أنه وبعد مرور أكثر من عشرين عاما شهدت الدار ذاتها في شهر آذار/ مارس ١٩٧٦ حلقة تثبيت تاريخ الحزب في العراق تحت إشراف شبلي العيسمي - الأمين العام المساعد في القيادة القومية[٣] .

إرتفع عدد خلايا الحزب بين طلبة الثانويات والكليات في بغداد بسرعة ، وبدأت أعداد أخرى منها تتشكل في مدن مختلفة وساهم الطلبة الرفاق الذين كانوا يدرسون في بغداد ويعودون الى مدنهم في العطل المدرسية بتكوين الخلايا .

كان التثقيف الحزبي وكسب الأعضاء والأنصار والمؤيدين يجري عبر الكتيبات والنشريات التي تردنا من القيادة في دمشق ، فيما الأعضاء والأنصار يكلفون بالإستنساخ عن طريق الكتابة باليد قبل أن تتوفر الآلات

---

٣ - أتصل بي شبلي العيسمي في منتصف شهر آذار/ مارس ١٩٧٦ - حين كنتُ رئيسا لمكتب الشؤون الاقتصادية لمجلس قيادة الثورة - مستأنسا برأيي عن قضايا عالقة حول تاريخ الحزب في العراق لم يحسم الموقف فيها لاختلاف الرأي بشانها . واقترحت أن أقوم بدعوة أكبر عدد ممكن من الرفاق الأوائل الى داري التي احتضنت أول مؤتمر قطري عام ١٩٥٥ ويكون العيسمي على رأس المدعوين للإستماع بنفسه الى آرائهم وذكرياتهم . وبالفعل حضر العيسمي معية طاقم فني لتدوين الوقائع والأحاديث على أشرطة تسجيل . ومن بين الرفاق الذين حضروا : الدكتور عبد الرحمن منيف وشفيق الكمالي وجعفر قاسم حمودي وشمس الدين كاظم وغيرهم . وفي عام ١٩٩٢ بدأت لجنة توثيق تاريخ الحزب لدى مكتب الثقافة والإعلام في القيادة القومية بنشر تاريخ الحزب في العراق على حلقات في جريدة «الثورة» العراقية .

الطابعة وأجهزة الاستنساخ[٤] .

أما النشرات الداخلية الواردة من دمشق وتلك المعدة من قبل تنظيم الحزب في العراق فكان تداولها محصورا بين الأعضاء كأحد الإجراءات التنظيمية السرية .

وكانت مالية الحزب تعتمد أساسا على مبالغ الإشتراكات الشهرية للأعضاء والأنصار ، الى جانب التبرعات التي يقدمها مؤيدو الحزب .

في عملية كسب أعضاء جدد ركز الحزب نشاطه على المتعاطفين مع «حزب الاستقلال» حيث كان شعورهم هو الأقرب لطروحات حزب البعث العربي الاشتراكي . وكان الند الكبير ـ من حيث الطروحات الفكرية والأسس التنظيمية والتغلغل الجماهيري ـ يتمثل بالحزب الشيوعي بالدرجة الأولى .

---

٤ ـ تولى الرفيق يحيى ياسين شراء أول آلة طابعة يدوية من منطقة «مجمع المحاكم» بجانب موقع «السراي» الحكومي وسط بغداد ، وكنتُ من بين مجموعة الرفاق المكلفين بالإشراف على تسلم هذا «الكنز» الثمين وإيصاله! ، حيث جرى تكليف ثلاثة نقالين «حمالين» بنقلها ، كلٌ لمسافة قصيرة لمنع تتبع مسار طريقنا كاملا ، حتى تم إيداعها في بيت الرفيق زكي الخشالي الذي تولى مهمة طباعة بيانات الحزب ومنشوراته عليها .

أودعت أول آلة استنساخ «رونيو»في داري ، وكان العمل بها صعبا مع انتاجية رديئة وبطيئة لاعتمادها على مادة «الإسبرتو» . أما أول آلة إستنساخ «رونيو»جيدة تعمل يدويا باستخدام الورق الشمعي «إستنسل» فلها قصة فريدة . فقد أعلمنا فؤاد الركابي في حينه بوجود ترتيبات لنقل هذه الآلة من سوريا ، مهداة من الحزب هناك ، الى بغداد عن طريق النفوذ العشائري للرفيق فيصل حبيب الخيزران الذي أكد هذا الإتفاق . وبعد فترة علمنا بوصول الآلة الى بغداد وأودعت في وكر طباعي .

لم تكن فترة نشوء الحزب وتنظيم الخلايا والفرق سهلة في فترة الأربعينات والخمسينات بسبب مواقفه المناهضة لسياسة الحكومات من ناحية والمراقبة الشديدة من قبل أجهزة الأمن من ناحية أخرى والتنافس الفكري والجماهيري مع الأحزاب الأخرى من ناحية ثالثة .

كان التنظيم الطلابي مرنا ، فالخلايا تقوم على أساس المدرسة او الكلية أثناء الدراسة ثم تعود كل عام لتتكيف على أساس المدينة او المنطقة السكنية في العطل الدراسية .

وكان التوجيه الثابت هو كسب الأعضاء عن طريق الإنتقاء . حيث تم على سبيل المثال ، كسب علي صالح السعدي[٥] ـ الطالب في كلية التجارة والإقتصاد ـ واستقطابه من قبل الخلية القائمة في تلك الكلية لما كان يتمتع به من روح وطنية وصفات جسورة وأهلية جسمية في حال الإشتباكات مع الآخرين .

وعلى المنوال نفسه تم في تلك الكلية أيضا كسب الطالب أياد سعيد ثابت بعد ان لوحظ عليه اندفاعه الوطني والجرأة والإقدام رغم الهدوء الظاهر عليه دائما[٦] .

---

٥ ـ بعد تخرج علي صالح السعدي من الكلية تدرج الى أعلى المراكز الحزبية : عضو القيادتين القطرية والقومية ، أمين سر القيادة القطرية ، عضو المكتب العسكري للحزب . تولى منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في الحكومة التي أعقبت انقلاب ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ وكان عضوا في المجلس الوطني لقيادة الثورة ثم انتهى وضعه بعد تسعة أشهر مبعدا الى العاصمة الاسبانية مدريد .

٦ ـ بعد تخرج أياد سعيد ثابت من الكلية تدرج في موقعه الحزبي حتى أصبح عضوا في القيادة القطرية ، وكان يقوم بمهمات خاصة وتم اعتقاله لعلاقته الوثيقة بالمجموعة التي حاولت اغتيال عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩ .

بقيت تنظيمات الحزب لفترة طويلة محاطة بسرية مطلقة[٧]، وكان عدد الخلية الواحدة يتراوح في العادة بين ٤ ـ ٥ أعضاء ويتقلص الى ٢ ـ ٣ في أيام التوتر الأمني.

وكانت الخلية تعقد اجتماعا حزبيا مرة في الأسبوع في منزل آمن لأحد الرفاق، وإن تعذر ذلك فيعقد الإجتماع أثناء عملية تجوال او في زورق نهري. وتنطبق هذه الصيغة على خلية الأنصار أيضا التي يديرها أحد أعضاء الحزب[٨].

وبقي الحزب سنوات يحجب اسمه فيستخدم عبارات عامة في بياناته الأولى[٩]مثل: «الشباب العربي» و«الشباب القومي العربي» و«الاشتراكيون العرب». وينطبق هذا على أسماء المكتبات التي أنشأها الأعضاء في بغداد وسواها من المدن كمحلات لبيع الكتب في الظاهر وفي الواقع أماكن للقاء وكسب الأعضاء. وكانت المسقفات المؤقتة المسماة محليا (الجراديغ) المقامة

---

٧ ـ كإجراء إحتياطي أمني كانت أسماء الرفاق مدونة في سجل العضوية كرموز عن طريق الأرقام بتسلسل عكسي للحروف، فيما كان مفتاح حلها محفوظا في مكان آمن آخر. فالعدد، على سبيل المثال:
٧ ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٧/٥ ـ ٤ ـ ٢٦ ـ ٢٨ ـ ٩ يقرأ «كريم شنتاف».

٨ ـ من علامات الإنضباط فرض عقوبة مالية على العضو او النصير الذي يتأخر ربع ساعة عن موعد الإجتماع الحزبي، حيث تبلغ العقوبة «عشرة فلوس» وهو مبلغ موجع في مقاييس ذلك الزمان! ؛ ومرادف لعقوبة «القرش» المطبقة في القطر السوري آنذاك.

٩ ـ صدر أول بيان باسم «الشباب العربي في العراق» في جريدة الجبهة الشعبية بعددها ١٧٠ في ١٧شباط / فبراير ١٩٥٢ منددا بالتحالفات الإستعمارية وسياسة حكومة نوري السعيد وعقد اتفاقية نفط جديدة مؤكدا أن لا بديل للعراق غير تأميم النفط وداعيا الجماهير الى النضال الشعبي ضد المعاهدات والأوضاع الإستعمارية في كافة أرجاء الوطن العربي ولتحقيق أهداف الشعب الأساسية في الوحدة والحرية والاشتراكية. كان الموقعون: وصفي الغانم، فؤاد احمد، ابو القاسم كرو، عدنان لطفي، فخري قدوري، عبد الله السامرائي، غازي جاسم، شفيق الكمالي، مصطفى حفاونة، سعيد غراين، محمد جميل، زهير مصطفى، جاسم محمد.

على شواطئ نهر دجلة في فصل الصيف ، والرحلات الجماعية الى خارج المدن ونصب المخيمات ، وسائل استخدمها الحزب لتعزيز الروح الرفاقية بين الأعضاء والأنصار والمؤيدين وتعميق روح الإنضباط لديهم .

كنا أنا وفؤاد الركابي أحيانا وتحسين معلة أحيانا أخرى نرتب سفرات الى المدن الواقعة خارج بغداد لكسب أعضاء جدد وأداء القسم لهم وتوثيق الصلة بالخلايا في تلك المدن .

وتواصل هذا النشاط على أيدي الرفاق القياديين حتى شملت الخلايا والفرق بحلول عام ١٩٥٥ مدنا كثيرة : البصرة والناصرية وسوق الشيوخ والنجف وكربلاء والكوفة والعمارة والسماوة والرميثة والحلة وبعقوبة وسامراء والموصل والفلوجة والرمادي والحبانية وحديثة وعانة وراوة وحصيبة .

في فترة قصيرة نسبيا أمدها ثماني سنوات فقط ـ من أيام غرس البذور الأولى عام ١٩٤٨ الى تاريخ عقد المؤتمر القطري الأول عام ١٩٥٥ ـ تمكن الحزب من توسيع قاعدته وإقامة تنظيماته المتكاملة وتعزيز دوره على الساحتين النضالية والسياسية . ومن معالم هذا التطور :

١ ـ إنتشار الخلايا والفرق في عموم العراق ، من شماله الى جنوبه ومن شرقه الى غربه ، ووصول التنظيم في العراق الى مستوى فرع .

٢ ـ إمتداد الخلايا الى شرائح المجتمع المختلفة : الطلبة والكسبة والفلاحين والعمال والنساء والجيش والطبقة المثقفة وغيرهم .

٣ ـ تأسيس المكاتب الإختصاصية لاستيعاب التوسع الحزبي : المكتب المالي والثقافي والطلابي والنسوي والعسكري الى جانب مكتب الإتصال الخارجي .

٤ ـ حيازة أجهزة الطباعة والإستنساخ ، وتنظيم الأوكار ، وتفريغ أعضاء للعمل الحزبي .

٥ ـ الإنتقال من السرية الى العلن بطرح اسم الحزب ودوره في القضايا السياسية العامة والجماهيرية ومد جسور الحوار مع الأحزاب الأخرى لتعزيز جبهة النضال الوطني، مع الإبقاء على سرية التنظيم والانضباط التام لدى الأعضاء والأنصار.

في الواقع كانت هناك عوامل عديدة ساعدت في تلك الفترة القصيرة على تحقيق كل ذلك. فمشاعر الناس الوطنية وصلت الى الذروة بسبب أحداث متتالية من أبرزها على الساحة العراقية انتفاضة الشعب ضد معاهدة بورتسموث ومن بعدها حلف بغداد، وعلى الساحة العربية قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والفشل العسكري العربي على الساحة الفلسطينية والإطاحة بالنظام الملكي في مصر وغيرها.

كان أعضاء الحزب يشعرون بثقة بطرح أفكارهم القومية والإشتراكية وسط الجماهير وفي المداخلات الفكرية مع الآخرين. وقد اغتنم الأعضاء موقف الحزب الشيوعي المؤيد لقرار تقسيم فلسطين واستخدموه ثغرة لتعزيز طروحاتهم وكسب عطف الجماهير.

المؤتمر القطري الأول عام ١٩٥٥

بعد أن قطع الحزب مرحلة التأسيس والتنظيم والتغلغل الجماهيري من ناحية، ومد جسور الحوار مع الأحزاب الأخرى من ناحية أخرى، ظهرت الحاجة لعقد مؤتمر قطري تنبثق عنه قيادة نظامية لمواجهة المهمات الجديدة ومعالجة الثغرات التنظيمية.

فمنذ عام ١٩٥٢ ظهرت بوادر تكتلات داخل القيادة. ومنذ عام ١٩٥٤

بدأت تنظيمات الحزب، وخاصة الأوكار الطباعية منها، تتعرض الى الكشف من قبل أجهزة الأمن ما أوجد قلقا لدى الأعضاء ترافق مع ضغوط من قواعد الحزب لجعل الإنتخاب الوسيلة لتشكيل القيادات على مختلف المستويات بعد أن كان يجري تشكيلها عن طريق التعيين.

في أواخر كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٥٥ عقد أول مؤتمر قطري في داري الواقعة في الأعظمية وسط ظروف أمنية صعبة، وحضر المؤتمر نحو ٢٥ رفيقا ورفيقة - أعضاء القيادة آنذاك وممثلين عن تنظيمات بغداد والمدن الأخرى ومكاتب الحزب أضافة الى التنظيم النسوي. وكان العلم العربي[١٠] - علم الحزب - يغطي طاولة المؤتمر. وبعد مناقشة بنود جدول الأعمال والتقارير إنتخب المؤتمر قيادة الحزب للقطر العراقي بالإقتراع السري وهم:

فؤاد الركابي وتحسين معلة وجعفر قاسم حمودي وشمس الدين كاظم وعلي صالح السعدي وفاهم كامل الصحاف وعبد الله الركابي. ثم جرى انتخاب فؤاد الركابي أمينا للسر.

فؤاد الركابي[١١]

عرفت فؤاد الركابي جيدا، فقد جمعتنا العلاقة الرفاقية منذ تكوينات الحزب الأولى في أواخر الأربعينات وعلى مدى ثماني سنوات تالية حين كان طالبا في كلية الهندسة بجامعة بغداد ثم موظفا مهندسا بعد تخرجه،

---

١٠ - هو العلم المعتمد على راية الثورة العربية إبان الحرب العالمية الأولى، وهو ذات العلم الذي يرفعه الفلسطينيون رمزا لهم ولدولتهم المأمولة.

١١ - ولد فؤاد أحمد الركابي في مدينة الناصرية في جنوب العراق عام ١٩٣١، من عائلة متوسطة الحال. عضو قيادة تنظيم الحزب في العراق ثم أصبح أمين سر القيادة، ودخل عضوا في القيادة القومية للحزب.

فيما كنتُ طالبا في كلية التجارة والإقتصاد ثم معيدا في الكلية ذاتها بعد التخرج عام ١٩٥٣ . وقمنا معا بسفرات حزبية الى المدن واشتركنا في المظاهرات والإضرابات وتحملنا المهمات القيادية ، وكنا نلتقي في سبيل ذلك كل يوم تقريبا .

كان الركابي نشيطا وجريئا ، لكنه كان تواقا للحصول على المركز الأول في القيادة . وقد لاحظتُ ، كما لاحظ رفاق آخرون ، انه لا يتورع عن ممارسة طرق غير مقبولة للوصول الى طموحه الشخصي . وهكذا قاد الركابي تكتلا عن طريق الإتصالات الجانبية داخل وخارج بغداد بهدف إزاحتي أنا من أمين سر التنظيم أولا ثم من القيادة ثانيا ليتبوأ هو رأس الهرم الحزبي . ووقف مساندا موقفي بعض الرفاق وخرجوا من القيادة ، فيما تابع قياديون آخرون الوضع بدقة[١٢] .

رغم ذلك واصلتُ العمل رفيقا حزبيا حتى مغادرتي العراق أواسط عام ١٩٥٦ كأحد طلاب البعثة العلمية لدراسة الماجستير في الولايات المتحدة الأمريكية . وانقطعت أخبار الحزب عني خلال فترة الدراسة حتى رجوعي الى العراق في صيف ١٩٥٨ . وأول ما فعلتُ حين وصولي الى بغداد زيارة فؤاد الركابي في مكتبه والتهنئة على توليه منصب وزير الإعمار عقب ثورة تموز ١٩٥٨ التي أطاحت بالنظام الملكي ، وكان آنذاك أمين سر حزب البعث .

---

١٢ ـ ضمن الأحاديث المسجلة في أواسط السبعينات لدى لجنة تاريخ الحزب عن الفترة التي سبقت عقد المؤتمر القطري ما ذكره الدكتور عبد الرحمن منيف أن خروج الرفاق من القيادة والتبدلات الكثيرة التي كانت تحدث يومذاك كانت بقرار من فؤاد الركابي أكثر منها قرارات جماعية ـ جريدة «الثورة» العدد الصادر في بغداد يوم ٢٠/ ١٢/١٩٩٣ .

وحول بدايات تكوين الحزب يقول الدكتور تحسين معلة» . . جاءنا أمر من فؤاد الركابي وقال حينها أنه من القيادة القومية لتشكيل قيادة قطرية ، وربما هو من فؤاد وليس من القيادة القومية . .» ـ حوار أجرته صحيفة «الصباح» مع الدكتور معلة ونشرته بعددها الصادر في بغداد ٢٠٠٤/٤/٣ .

إسترعى انتباهي في الزيارة القصيرة اكتضاض مكتبه بالملفات السميكة المتراكمة على أرض الغرفة بعد أن ضاقت منضدة مكتبه الواسعة بالعشرات منها ، وكلها مسائل تنتظر البت . وكان الرجل يحاول إخفاء التعب والإرهاق بتصنع الهدوء والإبتسامة أثناء تبادل الحديث ، ما جعلني أتساءل عن الكيفية التي ستيسر له الوقت الكافي لتصفح كل هذا الكم المتراكم عدا عن انشغالاته الحزبية والرسمية الأخرى .

وعلمت فيما بعد أن أحد أكبر مشاغله كان نتيجة الأوامر التي اتخذها خلال الأيام الأولى من مهمته بإيقاف العمل في المشاريع الضخمة العديدة التي تقوم بتنفيذها شركات المقاولات الأجنبية في العراق ضمن خطة وزارته حتى إشعار آخر . وترتب على إيقاف عمل الشركات فترة من الزمن مطالبتها بتعويضات جسيمة أرهقت ميزانية الدولة .

ووقف وراء تلك الأوامر الانطباع الإعلامي/ السياسي الذي كان يغذى من الأحزاب المعارضة قبل الثورة كون هذه المشاريع ، أو الجانب الأكبر منها على أقل تقدير ، ينفذ لمصالح أجنبية إستعمارية ولا صلة لمصلحة الوطن الحقيقية فيها .

وأتوقف هنا قليلا للإشارة الى أن تاريخ العراق الحديث ، مع اختلاف أنظمة الحكم على مدى نصف قرن ، يكشف عن ممارسة أحزاب المعارضة لسياسات المغالاة وتضخيم الأمور ، والإبتعاد عن الموضوعية أحيانا كثيرة في حملتها ضد سياسة الحكم ، وتوجيهها السياسي/ الإعلامي لقواعدها الحزبية وصفوف الجماهير وفق هذا النمط . وحين يسقط النظام تجد تلك الأحزاب نفسها مكبلة بما دفعته للجماهير سنوات طوال من تضخيم وادعاءات يصعب التراجع عنها فيما تملي مصالح البلاد العليا انتهاج سياسة تتصف بالموضوعية والحكمة .

على كل حال دفعت التطورات السياسية ضمن نظام الحكم الإئتلافي في المرحلة الأولى من عهد قاسم الى جعل الركابي وزير دولة في ٣٠ ايلول/ سبتمبر ١٩٥٨ بعد قضائه فترة شهرين ونصف الشهر على رأس وزارة الإعمار، ثم خروجه من التشكيلة الوزارية في ٧ شباط/ فبراير ١٩٥٩ إثر تنامي الخلاف بين حزب البعث وعبد الكريم قاسم .

وأعود الى الركابي بالإشارة الى الخلافات التي وقعت بينه وبين القياديين الآخرين في السنوات اللاحقة من مسيرته الحزبية وأدت به في نهاية المطاف الى انشطاره عن حزب البعث وقيامه بتأسيس تنظيم سياسي آخر (الحركة الإشتراكية العربية) ، وسجن أكثر من مرة وقتل أخيرا في سجن بعقوبة الواقع شرق بغداد عام ١٩٧١ .

حللت ضيفا في سجن «أبو غريب»

بعد عودتي الى بغداد عام ١٩٥٨ وتعييني مدرسا معيدا في كلية التجارة والإقتصاد إنخرطت في تنظيمات الحزب التي اتجهت بعد فترة الى العمل السري التام بسبب الخلافات السياسية مع قيادة عبد الكريم قاسم ودخول البلاد في صراعات داخلية حادة .

بعد فشل محاولة العسكري عبد الوهاب الشواف في الموصل في شهر أذار/ مارس ١٩٥٩ للإنقلاب على نظام قاسم قامت الأجهزة الأمنية والحزب الشيوعي الى جانب «المقاومة الشعبية» و«حركة أنصار السلام» - المسيّرتين من قبل الحزب الشيوعي - بأوسع وأبشع عملية لمطاردة المعارضين في عموم البلاد . واكتظت السجون ودوائر الأمن والتوقيف بعشرات الآلاف وبعضهم ممن لم يكن يختلف مع الشيوعيين إلاّ بالرأي والكلمة . وشملت العملية

رجال السياسة والجيش والأدباء وأساتذة وطلبة الجامعات ورجال الدين وغيرهم، من البعثيين والقوميين والإسلاميين من مخالفي نظام الحكم.

في أحد أيام تلك الفترة طُرق باب بيتي بعد منتصف الليل، ولم يكن الأمر يشكل مفاجئة لي، حيث دخلت مجموعة من «المقاومة الشعبية»[١٢] وطلبت مني مرافقتها الى الأمن العامة. وفيما كنت أغير ملابسي لاحظ أحد من المجموعة بالصدفة كتابا في القومية العربية كان ابن خالي اشتراه من السوق قبل فترة قصيرة. فطلبت المجموعة منه مرافقتها الى الأمن العامة أيضا. واضطر المسكين - وهو طالب في المدرسة المتوسطة - لتغيير ملابس نومه. وهكذا انطلقت السيارة بنا جميعا الى بناية الأمن العامة الواقعة آنذاك في شارع النهر وسط بغداد.

وجدتُ العشرات من الأشخاص محجوزين قبلي حيث قضينا ساعات في تلك البناية - مكان الحجز المؤقت - حتى أزف الصباح وجاء ضباط الأمن الى مكاتبهم.

وبعد نحو ساعة تلى أحد الضباط قوائم أسماء المحجوزين حيث سمّى لكل قائمة مركز الحجز النهائي، وكنتُ ضمن عشرة أشخاص ممن تحدد لهم معسكر الدبابات في أبو غريب، الواقع الى الشمال الغربي من أطراف مدينة بغداد.

---

١٢ - «المقاومة الشعبية» تنظيمات شبه عسكرية أنشأها الحزب الشيوعي، وضمت أعضاء منه ومناصرين وكانت تحكمت بشؤون الأمن في البلاد وبالشارع العراقي مقدمة الدعم لنظام عبد الكريم قاسم وملاحقة المعارضين باستخدامها مختلف أساليب العنف، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى انقلب قاسم عليها ووضع حدا لتصرفاتها.

وصلنا الموقع ودُونت أسماؤنا ثم أدخلنا في بيت بسيط وسط المعسكر وأغلقت بابه ، ووجدت أمامي عددا من الأشخاص المحجوزين قبلي أعرف بعضهم .

كانت فترة احتجازي التي استمرت ٩٣ يوما غريبة ومخيفة . كل يوم يفتح الحراس الباب ليدخلوا مجموعة جديدة من المحجوزين حتى بلغ العدد نحو ١٤٠ شخصا في بيت له خمس غرف صغيرة فحسب ، ما اضطرنا الى النوم ليلا على وجبتين جنبا الى جنب كالسمك في علبة السردين ، حيث لم تكن مساحة الغرف تكفي لاستلقاء جميع النزلاء على الأرض في آن واحد . ولم أجد مكانا أفضل لتناول وجبات طعامي غير الجلوس على أعلى حافة من سلم الدار بعد ارتقائها بصعوبة نتيجة اكتظاظ السلم ذاته بمختلف اللوازم . وكانت وجبات الطعام التي يحضرها المجهز أو ما يسمى (المتعهد) ذات نوعية رديئة ، لكن الجوع يضطرنا لتناولها . وكان هناك مشكلة مقرفة للغاية تحدث كل يوم حيث تضم الدار مرفقا صحيا واحدا لمئة وأربعين شخصا ينتظر كل منهم دوره في الصباح .

كانت زيارات الأهل لنا محجوبة والجرائد والكتب ممنوعة عدا القرآن الكريم ، والراديو محظورا أيضا . أما الشطرنج الذي صنعناه من عجينة الخبز لقضاء الوقت فكان يكتشف من قبل الحراس ويُصادر كل مرة ، وكذا الحال بالنسبة للدومينو المعمولة من علب السجائر .

كنا نتنفس الهواء داخل البيت فقط ولم تر أجسامنا أشعة الشمس طيلة أسابيع ، وكانت أجواء القلق والخوف مخيمة على الجميع . ففي كل ليلة كان ضابطا يفتح الباب وينادي على مجموعة منا للتحقيق . ثم تعود المجموعة بعد

ساعات كتلا بشرية لا حراك فيها من شدة التعذيب . وأقسى تعذيب كان قد حلّ بالقائد العسكري الكبير اللواء محمود شيت خطاب ، حيث أدخله علينا جنود أربعة يحملونه من يديه ورجليه ويلقونه على الأرض وهو فاقد الوعي . وبعد مضي فترة على هذا المنوال ولخطورة حالته اضطر حراس المعسكر لنقله الى أحد المراكز الطبية .

وبعد أن بدت مؤشرات الإصابة بمختلف الأمراض تنعكس على المحتجزين أستقدمت لجنة طبية لتجري الفحص على كل منا موصية بتعريض الجميع الى الهواء والشمس بين الحين والآخر . وهكذا أذنت «مكرمة السجّان» ليسمح لنا بالخروج الى الساحة المحيطة بالدار نصف ساعة ولمرة واحدة في الأسبوع!

وكان القلق القاتل مخيما ، على الدوام ، نتيجة احتمال شن «المقاومة الشعبية» أو فصائل أخرى هجوما مباغتا علينا في ظرف حالك لا أثر فيه للإنضباط او القانون . فانبثقت عنا لجنة ضمت العسكريين وحدهم ، ووضعت خطة للمقاومة والهروب ينفذها الجميع في حال وقوع الهجوم . وظلت الخطة مكتومة على جميع المحتجزين غيرالعسكريين .

ضمن المحتجزين في معكسر الدبابات في «أبو غريب» أشخاص من تيارات ومهن مختلفة كان من بينهم : عبد الرحمن البزاز ـ عميد كلية ؛ محمد محمود الصواف ـ من مؤسسي حركة الاخوان المسلمين في العراق ؛ العقيد منير الجراح ـ قائد فرقة عسكرية ؛ عدنان الراوي ـ أديب ، الى جانب موظفين وطلبة وعمال وكسبة وجنود .

وكنا حذرين من قيام أجهزة الأمن بإدخال عناصرها الى المعتقل على أساس كونهم من ضمن المحتجزين ، بهدف التصنت على ما يدور بيننا من أحاديث وأسرار . فلم نسأم ، تبعا لذلك ، من توجيه أسئلة واستفسارات لكل

نزيل جديد حتى نطمئن على وضعه . وذات يوم أدخل الى المعتقل شاب بسيط لا يتجاوز عمره العشرين عاما ، فأدخلناه معمعة الإستفسارات حول نشاطه السياسي وأسباب اعتقاله فأوضح أنه كان ضمن تظاهرة مؤيدة لعبد الكريم قاسم ويحمل إحدى صوره الكبيرة ، وحدث أن حاول آخرون عنوة أن ينزعوا الصورة منه لرفعها عاليا بدعوى قصر قامته ، فنشب نزاع أدى الى تمزقها ، فأتهم بالقيام بعمل عدائي وجيئ به الى المعتقل! عندها أخبرنا مسؤولي المعتقل بالحالة فأخرجوه من بيننا .

ومن أجل إزالة السأم عنا نظمنا منهاجا ثقافيا يتحدث فيه مرة كل أسبوع أحد كبار المثقفين المحتجزين على شكل محاضرة في السياسة او الأدب او التاريخ ، حيث كنا ننحشر للإستماع ومناقشة جوانبها ، جالسين القرفصاء في أوسع غرفة من غرف الدار الخمس الصغيرة .

قضينا أسابيع عدة دون أن نتمكن من الإغتسال ، ولم يكن حمام الدار الصغير الشرقي الطراز مهيئا لإستيعابنا ، بل اختارته الجهات المسؤولة عن المعتقل موقعا لخزن الأثاث المستهلك كأغطية الأرض (الكنبار) والكراسي وسواها .

ومع مضي أيام الصيف وتراكمات تصبب العرق من أجسامنا وجدنا أنفسنا عاجزين عن استمرار تحمل ما نحن فيه ، فاقترح عبد الرحمن البزاز مشاركة الجميع في حملة لتنظيف غرفة الحمام وتهيئتها للإستخدام . وتم ذلك بعد أن أعلمنا إدارة المعتقل بحملة التنظيف تجنبا لإساءة فهمها وتفسيرها بشكل مغاير للقصد الصحي والإنساني .

وبعد مضي حوالى عشرة أسابيع على هذا الوضع جرى تحول نسبي في موقف قاسم تجاه الحزب الشيوعي ، وهو المعروف بممارسة لعبة تأجيج التنافر بين القوى الداخلية للحفاظ على «زعامته» .

واستطعنا التعرف على هذا التطور حين سُمح ، في آخر أيام احتجازنا ، بتلقي الطعام الذي تعده عوائلنا ، دون أن يُسمح لها بالمقابلة اوالسلام علينا .

ومع أن حراس المعسكر كانوا يوصلون الطعام منقوصا ، إلاّ أن عدنان الراوي تلقى جهاز راديو صغيرا هُرّب اليه عن طريق وضعه في كيس داخل قدر من الرز!

وقد علمنا بهذه القصة حين كنا نجلس على شكل حلقات في الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها عدنان عند إذاعة نشرة الأخبار من محطة بغداد . فكان يتلو علينا النشرة الإخبارية والتعليقات ، مقطعا بعد مقطع ، مستخدما في ذلك سلك الإنصات بين أذنه وجهاز الراديو . وكان المشهد يتم بهدوء وحذر كل مرة كي لا يلاحظه حراس المعسكر . وبهذه الطريقة المغامرة أصبحنا قريبين مما يدور في العالم الخارجي ، ومن التغير الذي بدأ يطرأ على سياسة قاسم تجاه الحزب الشيوعي .

وهكذا بدأ إطلاق سراح المحتجزين بالتدريج ودون أي محاكمة ، وتم إخلاء سبيلي من معسكر الدبابات في منتصف شهر حزيران/ يونيو ١٩٥٩ بعد أن أمضيت فيه ما يزيد على ثلاثة أشهر حيث تم إعادتي الى عملي مدرسا معيدا في كلية التجارة والإقتصاد لتبلغ مدة سحب يدي من الوظيفة ٩٥ يوما .

مع حمدي عبد الجيد وأياد سعيد ثابت

يوم محاولة اغتيال قاسم

يوم الأربعاء ٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٩ إلتقيت الرفيق حمدي عبد المجيد[١٤] في داره بجانب الكرخ في بغداد للبحث في أمور حزبية ، ولم يكن

١٤ ـ حمدي عبد المجيد أحد الشخصيات البارزة في حزب البعث وأصبح ما بين ١٩٦٢ - ١٩٦٣ عضوا في القيادة القطرية ، وعضوا في المجلس الوطني لقيادة الثورة ١٩٦٣ ، وفي القيادة القومية ما بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ ، وأمين سر القيادة القطرية ووزيرا للعمل والشؤون الاجتماعية لفترة قصيرة في عام١٩٦٣ .

أحد غيرنا في الدار .

وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث داهمنا صوت طرق على الباب ، فذهب حمدي ليستطلع الأمر ، ومكث فترة يتحدث مع الطارق بصوت منخفض لم أفهم منه شيئا . ثم جاء الإثنان الى باحة الدار واذا بالقادم أياد سعيد ثابت .

جلس أياد بهدوء وسألني هل سمعت يا فخري بمقتل الزعيم! قلت : ومن يقوى على ذلك هذه الأيام! فأطلق أياد ضحكة طويلة ، ثم دعاني الى مرافقته بسيارته لحظة اعتزامه التوجه الى الأعظمية وهي منطقة سكناي ، طالبا الإنطلاق فورا وقبل أن يتم فرض حظر التجوال .

إنطلق أياد بالسيارة فيما اتخذت انا مكاني الى جانبه حيث توجه في البدء الى منطقة الكرخ . وبعد فترة من المسير توقف ليخبرني بتوجهه الى عيادة الدكتور تحسين معلة . وبعد لحظات عاد من دون العثور على الدكتور تحسين متسائلا إن كنتُ أعرف مكان سكناه ، فأجبت بالنفي .

وعادت السيارة منطلقة الى منطقة الأعظمية عبر «جسر الحديد» او ما يسمى أحيانا «جسر الصرافية «لنجد الشرطة وقد أحكمت سيطرتها على منفذي الجسر بهدف التعرف على هوية العابرين . طلب مني أياد أن أبرز للشرطة هويتي الجامعية ففعلت وسمحت الشرطة لنا بعبور الجسر .

أثناء السير كان أياد أباح لي أن الرفيق عبد الوهاب الغريري قُتل أثناء عملية إطلاق النار على عبد الكريم قاسم ، عندها تيقنت من أن قيادة حزب البعث قامت بعملية قتل قاسم وان أياد كان ضمن المجموعة المنفذة او على صلة بها ، كما فهمتُ سبب بحثه عن الدكتور تحسين .

وبعد لحظات من الصمت أدرك أياد أنه أخطأ بهذا التفوه فرجاني تجاهل تلك العبارة ، وكان في حينه واثقا من مقتل عبد الكريم قاسم! ثم علمت أن

حظر التجوال المتوقع الوارد على لسان أياد كان إحدى الحلقات الأولى المتفق على تنفيذها بين قيادة الحزب والعسكريين المتعاونين معه من ذوي الرتب العليا في جهاز الدولة العسكري ، لتنفيذها مباشرة بعد مقتل قاسم من أجل السيطرة على الشارع .

وفي منطقة «الكسرة» الواقعة بين «جسرالحديد» وساحة «عنتر بن شدّاد» أمام النادي الألومبي في الأعظمية رأينا تجمعات متحمسة تقف في الشارع الرئيسي معربة عن سخطها لعملية الإغتيال ومطالبة بتصفية الخونة . فرجوت أياد تفادي هذه المنطقة تحاشيا من تعرف أحد الموجودين علينا فيتم وضع حد لحياتنا بعد أن شهد العراق لأول مرة في تاريخه سحل المعارضين في الشوارع حتى الموت . لكن أياد لم يلب ما طلبتُ وواصل السير بهدوء تام وببطء وسط تلك الكتل البشرية ، فيما كانت أعصابي في غاية التوتر!

بعد وصولي الى المنزل استأنف أياد السير في رحلة البحث عن الدكتور تحسين .

ولم تمض سوى ساعات وجيزة حتى أفادت الأخبار الرسمية بتعرض قاسم لإصابات طفيفة فقط نتيجة العملية . ثم توالت الأيام ومعها تضاربت الإشاعات عمن يكون وراء محاولة اغتيال قاسم .

وبعد أن تم تشخيص الفئة التي قامت بالمحاولة والقاء القبض على أياد سعيد ثابت وحمدي عبد المجيد خشيت أن يجري القبض عليّ أيضا بسبب اجتماعي المنفرد مع حمدي في ساعات محاولة الإغتيال ومرافقتي لأياد بسيارته بعد ساعة من الحادث بشهادة الناس في منطقتي الكرخ والكسرة وشرطة المراقبة عند الجسر . ومرت الأيام والأسابيع وأنا على هذه الحال من القلق الدائم .

إنتقال دراستي للدكتوراه من الصين الى ألمانيا (الغربية)

بعد إطلاق سراحي من مركز الإحتجاز في «ابو غريب» في منتصف حزيران/ يونيو ١٩٥٩ وعودتي الى وظيفتي مدرسا معيدا في كلية التجارة والإقتصاد كان سمح للتقدم بطلبات للحصول على بعثة دراسية في الخارج، فسارعت لتقديم طلبي لدراسة الدكتوراه في التخطيط الإقتصادي حسب القائمة الرسمية للدراسات المعلنة. وقد وافقت اللجنة الرسمية على طلبي من الناحية المبدئية، أما موافقتها النهائية فكانت متوقفة على نتائج المقابلة الشخصية.

في تلك المقابلة واجهت وجوها لعناصر من الحزب الشيوعي أعرفها مسبقا، فبادرني رئيس اللجنة بالإستفسار عما إذا كنتَ موافقا على دراسة التخطيط الإقتصادي في الصين! فأجبته بنعم دون تردد، حيث كان الأنسب لي قضاء أربع سنوات من عمري في الصين على أن أقضيها ولربما لفترة أطول في أحد سجون العراق.

إنتهت المقابلة ونشرت أسماء الطلبة المقبولين لبعثات ذلك العام ومن بينها اسمي ومكان دراستي الصين. وكانت تلك هي الخطوة الأولى لقصة فريدة!

كنتُ في واقع الحال قبلتُ الدراسة في الصين رغبة مني في الابتعاد عن ما قد يقع عليَ من كوارث وما قد تجره علاقتي بحمدي عبد المجيد واياد سعيد ثابت من ملاحقة وتعذيب، وفي الوقت ذاته كنتُ مدركا الأسباب التي دفعت اللجنة لتحديد الصين مكانا لدراستي. فاللجنة الخاضعة لنفوذ الحزب الشيوعي في العراق اختارت بلدا ينتمي الى الفكر الشيوعي وربما تمنتْ لو يتم هناك إجراء غسيل دماغ لرفيق بعثي! او أن اللجنة تمنتْ لو رفضتُ مكان الدراسة كي يُستخدم الأمر ذريعة لشطب اسمي من البعثة.

بعد فترة وجيزة خطوتُ الخطوة الثانية ، فقابلتُ رئيس اللجنة واقترحتُ عليه جعل مكان دراستي ألمانيا الشرقية بدلا من الصين ، بحجة أن كلا البلدين ينتميان الى فكر واحد ، وهناك فائدة لدراستي في ألمانيا الشرقية حيث اللغة الألمانية لغة متداولة عالميا على عكس اللغة الصينية ، فكان أن وافق رئيس اللجنة على مقترحي وتم تحويل مكان دراستي الى ألمانيا الشرقية .

بعد فترة خطوتُ الخطوة الثالثة وقابلتُ رئيس اللجنة مرة أخرى لأوضح له أن توفير مقعد دراسي في جامعات ألمانيا الشرقية يتطلب وقتا طويلا غير محدد ، فلماذا لا أذهب على وجه السرعة الى ألمانيا الغربية لدراسة اللغة الألمانية لكسب الوقت ثم أنتقل الى ألمانيا الشرقية فور إشعاري بتوفير مقعد دراسي فيها . فاقتنع رئيس اللجنة بالمقترح وأعطى موافقته على سفري الى ألمانيا الغربية لدراسة اللغة فقط ثم الإنتقال الى ألمانيا الشرقية للحصول على الدكتوراه في التخطيط الإقتصادي هناك .

سافرتُ الى ألمانيا الغربية وأكملتُ فصلين لدراسة اللغة وبدأت بالخطوة الرابعة والأخيرة . قابلت أستاذا في الإقتصاد بجامعة كولونيا وشرحت له قصة بعثتي ورغبتي بالدراسة في جامعته ، وسألته عما إذا كان بإمكانه تأييد تناول دراستي التخطيط في ظل المذاهب الإقتصادية المختلفة وفي مقدمتها الماركسي والرأسمالي . وافق الأستاذ مشكورا وأرفقت كتابه بطلب وجهته الى الوزارة المعنية في بغداد راجيا الموافقة على دراستي في جامعة كولونيا . وفي ظل أجواء سياسية مواتية ـ حيث بدأ عبد الكريم قاسم بالحد من نفوذ الشيوعيين ـ حصلت الموافقة ، وهكذا تحول مكان دراستي من بكين أولا الى كولونيا أخيرا .

خلال إقامتي في ألمانيا :

■ *سافرت ممثلا عن الشعبة الى المؤتمر القومي*

في ألمانيا (الغربية) إنخرطت بتنظيمات الحزب التي كانت منتشرة كخلايا وفرق في مدن جامعية عديدة مثل كولونيا وبرلين وبون وآخن وميونيخ وغيرها . وكان التنظيم رصينا ، ولأعضائه وأنصاره دور بارز ضمن الوسط الطلابي في المناسبات الوطنية والقومية .

وبعد أحداث ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ في العراق ، وعقبها بأسابيع قليلة في سوريا ، ومجئ البعث الى الحكم في البلدين ، عقدت التنظيمات الحزبية مؤتمرا موسعا في مدينة برلين على مستوى شعبة . و تم انتخابي ضمن قراراته لتمثيل الشعبة في المؤتمر القومي للحزب الذي كان قد تحدد مكان انعقاده في بيروت كما جاء بكتاب الدعوة الموجهة من قبل القيادة القومية الى شعبة ألمانيا .

سافرت في الموعد المحدد الى بيروت ، إلاّ أن المؤتمر تعرض الى تأجيل مستمر ، عندها لمست من الرفاق وجود أسباب ترجع الى استمرار المناورات الجارية خلف الكواليس بين القياديين . فضقت ذرعا من الإنتظار وقررت السفر الى بغداد في محاولة للإهتداء الى الأسباب الحقيقية ، لكني لم أفلح فقررت العودة الى ألمانيا وإعلام قيادة الشعبة بالأمر .

■ *علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد يزوراني خلسة*

بعد مضي بعض الوقت حدث طرق على باب شقتي في مدينة كولونيا وكان الوقت ليلا ، وإذا بي وجها لوجه أمام عضوي القيادتين القومية والقطرية علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد وكان قد دلّهما عليّ رفيق في السفارة

العراقية بمدينة بون العاصمة آنذاك .

كانت دهشتي كبيرة لهذه المفاجأة ، إذ كنتُ في الواقع علمت من الأخبار قبل أيام من الحدث أن تحولا وقع في العراق يوم ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣ وأن علي صالح السعدي أخرج من منصبه كنائب لرئيس الوزراء وأبعد مع رفيقه حمدي عبد المجيد بطائرة الى العاصمة الاسبانية مدريد ، لكنني لم أكن أتوقع أن يغادر السعدي ورفيقه عبد المجيد مدريد خلسة الى بون ثم الى كولونيا .

قدمت لهما الشاي والمرطبات ، في الوقت نفسه الذي كان السعدي أخرج من خزانتي زجاجة ويسكي كنتُ تسلمتها هدية من زميل ألماني . كان عبد المجيد قليل الكلام محاولا التعبير عن هدوءه فيما كان ألم الأحداث بان على وجهه . وتحدث السعدي طويلا حول تطور الأوضاع في العراق وأمله باستعادة الخط «الثوري» داخل الحزب والدولة نفوذه وعودة الأمور الى نصابها . وكان هادئ الأعصاب نسبيا ، يمارس الضحك والدعابة أثناء الحديث ، ويتململ بين الحين والأخر بسبب مضايقة (المسدس) الذي كان يحمله على جنبه . وحين سألته كم من الوقت سيمضي في المانيا أجاب انها فترة وجيزة . وحين انتهى السعدي من تناول المشروب الروحي بالكامل وحده كان أفرغ ما في قلبه من حديث ليودعني وزميله عبد المجيد بعد منتصف الليل بقليل .

في أواسط عام ١٩٦٤ عدتُ الى بغداد بعد حصولي على الدكتوراه من جامعة كولونيا وجرى تعييني رئيس ملاحظين في وزارة الإقتصاد براتب شهري قدره ٥٠دينارا ، ما يفي بحياة معيشية متقشفة .

في هذه الفترة عدتُ للإنخراط في النشاط الحزبي على نطاق محدود ، حيث لمست على الساحة تيارا مضادا يحمل هوية حزب البعث ذاتها

ومتعاونا مع البعث في سوريا ، وما بين التيارين خلاف يصل الى حد الإتهام بالخيانة .

وبعد أحداث تموز/ يوليو ١٩٦٨ وتعييني وزيرا للإقتصاد ، قرر الحزب تشكيل خلية حزبية تضم مجموعة من الرفاق الوزراء كنتُ أنا والدكتور جواد هاشم وزير التخطيط وعدنان أيوب صبري وزير دولة من بينهم . وكانت الخلية تعقد اجتماعاتها بصورة منتظمة في حين إختار الحزب رفيقا موظفا بدرجة بسيطة مسؤولا عنها ومديرا لجلساتها .

وأثناء عملي ، فيما بعد ، رئيسا لمكتب الشؤون الإقتصادية لمجلس قيادة الثورة ومحافظا للبنك المركزي العراقي كُلفت من قبل القيادة كي أكون ضمن الطاقم التدريسي في جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا في بغداد في أواسط السبعينات ، وكان جميع طلبة الجامعة من العسكريين فقط ، فيما كانت محاضراتي تنصب في مجال العلوم الاقتصادية .

كما جرى تكليفي بالقاء محاضرات إقتصادية في مدرسة الإعداد الحزبي ، وهي المدرسة التي يجري فيها تعميق وتوسيع ثقافة الأعضاء وتجري الإمتحانات لهم كمعيار إضافي لصعودهم الى درجات حزبية أعلى .

وكنتُ أمارس هاتين المهمتين فيما استمر وضعي بدرجة رفيق في أسفل السلم الحزبي .

وخلال فترة إعارة خدماتي ، أمينا عاما لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية ١٩٧٨ ـ ١٩٨٣ ، كنت ملتحقا بحلقة حزبية في العاصمة الأردنية عمان كان الملحق العسكري العراقي مسؤولا عنها ومديرا لاجتماعاتها في السفارة العراقية . وفي تلك الفترة كنتُ مكلفا بإلقاء محاضرات في المجال الإقتصادي على الفرق الحزبية في الأردن .

كنتُ وما أزال مقتنعا أن «الوحدة والحرية والاشتراكية» أهداف سليمة بحد ذاتها وجدت في نفوس الشباب في فترة الأربعينات والخمسينات على وجه الخصوص تجاوبا واسعا وأملا كبيرا ، وكانت أدبيات الحزب التي تضع الحضارات المنبثقة في بقاع الوطن العربي على مدى مئات القرون في إطار قومي تاريخي واحد تستهوي النفوس وتبعث فيهم الفخر والثقة .

الوحدة العربية كانت وما تزال الهدف المشترك الأكبر لعموم العرب اينما كانوا ، رغم تحولها ، بعد الإنتكاسات العديدة ، من هدف الى أمنية ، فهي قوة العرب والإطار الذي يجدد شخصيتهم ويعزز كرامتهم . والحرية بأبعادها وممارساتها ترجمة لطبيعة الإنسان وضرورة لتحقيق الذات . وإذا كانت الحرية في التطبيق على مدى تاريخ البشرية محكومة بالنسبية ، فإن الأمة العربية في تاريخها الحديث تفتقر الى الحد الأدنى من مدياتها الدنيا . وهدف الإشتراكية الإنسان ذاته والمجتمع الزاهر بخيراته المتنعم بتضامن أفراده ، فهي مسار يجنب المجتمع ما تحمله الرأسمالية والماركسية من سلبيات ويلتقي معهما في جوانب إيجابية .

وبإقرار البعث أن الإسلام يمثل نهضة العرب الكبرى ، وان الإنقلاب على ما في النفس من سلبيات متراكمة كضرورة لبعث الأمة من جديد ، يربط بين ما يتمتع به المجتمع العربي من خصوصيات روحية سامية والطريق لنهضة جديدة .

تلك هي الطروحات والأهداف التي آمنت بها ، وانخرطت من أجلها منذ عام ١٩٤٨ بالحزب .